بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (سورة: أل عمران)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (سورة: النساء).

أما بعد

فإن القارئ لكتاب الله يجد آيات كثيرة تعرض لعقائد الأديان الأخرى وتناقش مقالاتهم بأسلوب حكيم، وحجة بالغة، وذلك كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (سورة: النساء) وكقوله - سبحانه - ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (سورة: المائدة).

وقد حرص القرآن الكريم على دعوة أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام، والإيمان بمحمد - ﷺ - مبينا أن دعوته التى جاء بها موافقة فى جوهرها لما دعا إليه الأنبياء السابقون، وأن معجزته الكبرى - القرآن الكريم - جاءت مصدقة للكتب

السماوية السابقة ومهيمنة عليها، ولكن القرآن لم يكره أحدا على قبول عقائده، بل أكد أهمية الإقناع والاقتناع فى مجال قبول العقائد، أما فى مجال التعايش الاجتماعى فقد نظم الإسلام حقوق الأقليات غير المسلمة وواجباتهم، وعاش أهل الذمة طوال أربعة عشر قرنًا فى رحاب المجتمع الإسلامى يجدون كل سماحة وأمن، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا..

ولعل مما يشير إلى شىء من تلك الروح الخيرة، ما رواه أبو يوسف قال حدثنى عمر بن نافع عن أبى بكر[1] قال: مر عمر - ﷺ - بباب قوم وعليه سائل يسأل، وكان شيخا ضرير البصر فضرب عمر عضده وقال: من أى أهل الكتاب أنت؟. فقال: يهودى، قال فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة والسنُّ فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءَه فوالله ما أنصفناه، إذْ أكلنا شبيبته ثم تَخْذُلَهُ عند الهرَم ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (سورة التوبة: ٦٠) فالفقراء هم المسلمون. وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ثم وضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال أبو بكر: أنا شهدت ذلك من عمر، ورأيت ذلك الرجل[2].

وعمر عندما فعل ذلك كان ينطلق من قول نبى الإسلام - صلوات الله عليه - «من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته، أو انتقصه، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[3].

فى هذا الجو الصحيح وجد علم مقارنة الأديان فى الفكر الإسلامى اتباعا لمنهج القرآن الكريم فى مناقشة العقائد السابقة سواء أكانت صحيحة أم باطلة، وقد رأينا علماءنا الأوائل يهتمون بهذا العلم، ويؤلفون الكتب المتعددة لبيان الملل المختلفة التى تغاير ملة الإسلام..

---

(١) هو: أبو بكر العنسى المترجم فى التهذيب ١٢/ ٤٤.

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٢٥٩.

(٣) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير ١/ ٢٠٩ ط الهيئة المصرية للكتاب (بدون تاريخ). وذكره أبو يوسف فى كتاب الخراج ص ٢٥٨.

ومن أشهر هذه الكتب كتاب «مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ، وكتاب «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ، وكتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» لأبى الريحان البيرونى المُتوفَّى سنة ٤٤٠ هـ، وكتاب «التبصير فى الدين» للإسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ، وكتاب «الملل والنحل» للشهرستانى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ.

غير أن خير كتاب أُلِّفَ فى هذا الباب هو كتاب: «الفَصْل فى الملل والأهواء والنحل» لأبى محمد بن حزم المتوفَّى سنة ٤٥٦ هـ.

وذلك للأسباب الآتية:

أولا: يحرص ابن حزم على الدقة والضبط فى حكاية عقائد الآخرين، وقد لام فى مقدمة كتابه - الفَصْل - المصنفين فى المِللَ والنِّحَل ظلمهم لخصومهم إذ لم يوفوهم حقَّ اعتراضهم[1].

وقد قال عالم غربى فى الموسوعة الإسلامية: «إن ابن حزم كان منصفا لخصومه، ولم يكن من طبعه اختلاف التهم يرميهم بها..»[2].

ثانيا: الاتساع والشمول:

حيث تناول فيه الأديان المختلفة والنحل المتباينة، فهو يبدأ بالسوفسطائية الذين يشكُّون فى كل شىء ولا يثبتون حقيقة ما، وينتهى بالفرق الإسلامية التى تؤمن بالإله الواحد.

وتلك حسنة من حسنات كتاب «الفصل» إذ إنَّ كثيرا من مؤرخى الأديان مثل كتاب أبى الحسن الأشعرى الذى اكتفى فيه بمقالات الإسلاميين، وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة، الذى قصره صاحبه على عقائد الهنود كما هو واضح من عنوانه.

ثالثا: لقد كان ابن حزم موفقا فى المنهج الذى رسمه لنفسه، وسار عليه فى كتابه «الفصل» أعنى به منهج التقرير والنقد، حيث كان ابن حزم يقرر الفكرة - أكمل

(١) راجع مقدمة كتاب الفصل.

(٢) انظر: أرندونك: الموسوعة الإسلامية (مادة ابن حزم).

ما يكون التقرير – ثم يأخذ بعد ذلك فى مناقشة أصحابها، وتفنيدها بنقد يشهد لها أو عليها.. وهذا بخلاف منهج الشهرستانى – مثلا – الذى اقتصر فيه صاحبه على التقرير والعرض، دون نقد أو توضيح[1].

وعندى أن منهج ابن حزم له فضائل متعددة:

(أ) الحيوية والحركة، والبعد عن الجفاف والجمود، مما يعين القارئ على مواصلة القراءة، ويطرد عنه الضيق والمَلَل، وهو يطالع كتابا من أكبر كتب المِلَل.

(ب) إعطاء المسلم فيضا من الحجج والأدلة يستطيع بها الدفاع عن العقيدة التى يحملها، والدين الذى شرفه الله به.

(ج) كشف ما فى الأديان الأخرى من تحريف وباطل، مما يزيد المسلم استمساكاً بدينه وحبًّا للرسالة التى ختم الله بها الرسالات، ونسخ بها ما سبق من عقائد وأديان.

(د) تنمية ملكة المناظرة، وتعليم فن النقاش والمحاورة، والكشف عن الأساليب الملتوية والمقدمات الخاطئة التى لا تتفق مع مقررات العلم، والتى يمكن أن يستخدمها الخصم فى الجدل.

(هـ) دراسة الشُّبْهَةِ دون بيان لمخاطرها قد تترك أثرا فى نفس القارئ فتعلق بذهنه دون أن يدرى جوابا عليها، وخاصة للمبتدئين الذين لا يميزون بين صحيح الآراء وباطلها.

(و) دراسة الآراء وعرضها سهل ميسور، أما الرد على الباطل منها فيحتاج إلى قدرة خاصة فى الجدل، فليس كل من يؤرخ لعقيدة يمكنه أن يضع يده على مواطن القوة والضعف فيها كما فعل العلامة ابن حزم[2].

رابعا: يمتاز كتاب الفصل عن غيره من كتب الملل بالسَّبْقِ والريادة وخاصة فى دراسة نصوص التوراة والإنجيل ونقدها نقدا علميا جعل أحد علماء النصارى يقول: إن عقائد النصارى التى ناقشها علماؤهم – ممن ذكر أسماءهم – سبقها فى بحثها ودراستها ابن حزم فى كتابه الفصل[3].

---

(١) انظر: كتابه الملل والنحل ١/ ٢٣.

(٢) راجع ص ١٤٨ من هذا البحث.

(٣) راجع الموضع السابق.

ومما يؤكد دور ابن حزم الريادى فى علم مقارنة الأديان أن التناقضات التى أثبت العلم الحديث وجودها فى التوراة والإنجيل قد سبق بها ابن حزم وأوردها فى كتابه منذ القرن الرابع الهجرى قبل أن يهتدى إليها أحد من العلماء المحدثين[1].

وقد عرف علماء الغرب قيمة هذا الكتاب فأضفوا على صاحبه هالة من التقدير والإجلال، فأقاموا له النصب التذكارية، والمؤتمرات العلمية التى تتحدث عن فضله وعلمه[2].

فلا غرو أن يعكف على كتاب الفصل المستشرق الأسبانى آسين بلاثيوس سنوات طويلة، دارسا لمخطوطاته وتحليل مادته، وقد أخرج هذه الدراسة فى خمسة مجلدات بعد أن ترجم بعض أجزاء «الفَصْل» إلى اللغة الأسبانية.

ولعل من الخير أن نشير إلى شىء من ثناء العلماء على كتاب الفصل إعجابا.. وتقديرا.. لهذا العمل الكبير.

يقول «بروكلمان» عن كتاب الفصل: «إنه مؤلف دينى تاريخى عظيم وهو كتاب لم يسبق إلى مثله فى الأدب العالمى[3]».

ويقول عالم غربى آخر: «إن ابن حزم كرم فى الغرب باعتباره مؤسسا لعلم مقارنة الأديان»[4].

أما الدكتور «فيليب حتى» فيعتبر كتاب «الفصل» من أنفس كتب ابن حزم الباقية، ويعترف لصاحبه بالسبق والريادة بين العلماء الذين عنوا بدراسة الأديان والنحل[5].

---

(١) راجع الموضوع نفسه.

(٢) أقامت مدينة قرطبة تمثالا للإمام ابن حزم على باب أشبيلية (أحد أبواب قرطبة) حيث كان يمر ابن حزم كل يوم إلى المسجد من سوق العطارين.. وقد نحت على أعلى قاعدة التمثال سطر بالخط الكوفى الأندلسى: «بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة أبى محمد على أحمد بن حزم، تقدم قرطبة أصدق التحية لمن تعتبره ابنا من أعظم أبنائها» (راجع سعيد الأفغانى: نظرات فى اللغة عند ابن حزم ص ٥٦).

(٣) راجع ص ١٥٠ من هذا البحث.

(٤) راجع الموضع السابق.

(٥) راجع الموضع السابق.

ولست الآن فى مجال حصر ما قاله علماء الغرب عن كتاب الفصل، واعترافهم لصاحبه بالسَّبق والابتكار، فهذا مما يطول ذكره.

هذا... وقد جاءت الدراسة فى ثلاثة أبواب:

الباب الأول: جعلته عن عصر ابن حزم وحياته وتراثه..

تحدثت - بإيجاز - فى الفصل الأول منه عن عصر ابن حزم فى جوانبه السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية.. محاولاً الكشف عن العوامل التاريخية التى جعلت ابن حزم يهتم بهذا اللون من مقارنة الأديان وبخاصة ما يتصل باليهودية والنصرانية.

وفى الفصل الثانى: حاولت أن أعطى صورة موجزة عن حياة ابن حزم: مولده، ونسبه، ونشأته، وشيوخه وتلاميذه، والوظائف التى تولاها فى الدولة، وصفاته، وأخلاقه، ووفاته. وقد ربطت بين حياة ابن حزم فى جوانبها المختلفة وأثر ذلك فى كتاب الفصل..

وفى الفصل الثالث: تحدثت عن تراث ابن حزم وقسمته إلى موجود ومفقود محاولاً أن أعطى فكرة عن كل كتاب وطبيعة موضوعه ما أمكن ذلك.

أما الباب الثانى - ويقع فى خمسة فصول - فجعلته للحديث عن خصائص كتاب «الفصل» وإطاره العام.

تحدثت فى الفصل الأول عن الكتاب وظروف تأليفه من حيث اسم الكتاب وصحة نسبته إلى صاحبه، وتاريخ تأليفه والعوامل التى دعت إلى تأليف هذا الكتاب، وعند حديثى عن عنوان الكتاب رجحت أنه «الفَصْل» وليس - الفِصَل - كما اشتهر عند الكثيرين، وأحسب أن الأدلة الكثيرة التى أوردتها فى هذا الصدد تؤيد الرأى الذى ذهبت إليه..

أما الفصل الثانى: فكان للحديث عن مصادر ابن حزم فى كتابه الفصل والروافد التى غذت فكره، وكونت شخصيته العقلية.

وفى الفصل الثالث - من هذا الباب - تحدثت عن أسلوب ابن حزم موضحا جودة الأسلوب الذى صيغت به مؤلفات ابن حزم بعامة، وكتاب الفصل بخاصة، وذكرت

مـن النماذج ما يـدل على موهبته الأدبية التى جعلته يصـوغ مكنون فكره بعبارات تتخللها لمسـة الحسـن والجمال.. وقد أبرزت الخصائص التى يمتاز بها أسـلوب ابن حزم فى كتابه «الفصل» مبينا أن الخاصية الأولى تتمثل فى وضوح هذا الأسـلوب حيث كان يحرص على تيسـير العلوم وتسـهيلها حتى تعم الفائدة، وينتشر الخير بين الناس.

أما الخاصية الأخرى لأسلوب ابن حزم فهى قسوة عباراته فى بعض مواطن النقد وهى قسوة جعلت أحد العلماء يقول عنها: «سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان»، وقد تحدثت عن تلك القضية بالتفصيل موضحا الأسـباب التى جعلت ابن حزم يلجأ إلى هذا اللون من العنف..!!

أمـا الفصل الرابع: فجعلتـه للحديث عن كتاب الفصل بيـن الكتب الأخرى فى الأديان، تحدثت فيه عن الكتب السابقة واللاحقة لكتاب ابن حزم ثم اخترت كتاب الشهرسـتانى فى الملل والنحل فعقدت مقارنة بينـه وبين كتاب ابن حزم مبينا أن كتاب ابن حزم أفضل هذه الكتب من حيث شموله، وسبقه، ومنهجه..

ثـم يجىء الفصل الخامس، الذى أوضحت فيه منهج ابن حزم الظاهرى ومنهجه العقلى ومنهجه فى الجدل والمناظرة.

وقـد حاولت عند حديثى عن منهجه الظاهرى أن أكشـف عـن العوامل التى جعلت ابن حزم يختار هذا المنهج دون سـواه، ثم بينت الأصول التى يقوم عليها هذا المنهج وناقشـت أكثر هذه الأصول التى ارتضاها أساسـا لمنهجه كالقياس والاستحسان والقول بالـرأى وغير ذلك من الأصول التى يقوم عليها منهجه الظاهرى.. وقد وقفت طويلا عند الحديث عن أهمية دراسـة المنهج الظاهرى لكتاب الفصل، وذكرت بعض الأمثلة التى تبين أن ابن حزم لم يكن يطبق منهجه الظاهرى على مسائل الفقه فحسب، بل كان يطبق ظاهريته - أيضا - عند دراسة العقائد والفرق الكلامية، وعقائد النصارى واليهود.

وعنـد الحديث عن منهجه العقلى بيّنت موقف ابن حزم من العقل، واعتماده عليه فـى إبطال كثير من القصـص التى وردت فى التوراة والإنجيل حيث اعتبرها ابن حزم

أقرب إلى الخرافات منها إلى أى شيء آخر.. ونعتقد أن ابن حزم كان موفقا كل التوفيق عندما جعل حدّ العقل استعمال الطاعات والفضائل، واجتناب المعاصى والرذائل، بمعنى أن العاقل من يُنجِّى نفسه من النار والهلكة، ويُوليها وجهة الحق والنجاة، وإنها لنظرة تستمد أصولها من القرآن الكريم مباشرة.. وابن حزم نفسه يربط بين هذه النظرة وبين قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (سورة الملك: ١٠)

وانطلاقا من هذه النظرة - أيضا - ينكر ابن حزم أن يُسمَّى ما عند أهل المعاصى من تدبير محكم فى سياسة الدنيا، وتدبير المعايش، وإحكام الأعمال الدنيوية عقلا، بل يسمى هذا دهاء أو حزما أو رزانة، أما العقل فهو أسمى من ذلك، فهو الخضوع للحق بعد إدراكه مع سياسة الدنيا لتكون مزرعة للآخرة.

وفى الحديث عن منهج ابن حزم الجدلى بينت مفهوم الجدل عند ابن حزم وآدابه، وطرقه، والبراهين الفاسدة، وغير ذلك من المباحث التى تكشف عن منهجه الذى سلكه فى الجدل مع الفرق المختلفة، وطبقه بوضوح فى كتابه الفصل..

أما الباب الثالث والأخير فجعلت عنوانه: آراء ابن حزم فى الفصل: عرض ودراسة، وقد قمت بتقسيمه إلى خمسة فصول، تحدثت فى الفصل الأول عن موقف ابن حزم من النبوة من حيث المنكرون لها، ومن حيث براهين إثباتها، كما تحدثت عن الفرق بين المعجزة وغيرها من السحر وألوان الحِيَل فى نظر ابن حزم، وكيف يمكن للمرء أن يفرق بينهما.

أما الفصل الثانى فكان عن موقف ابن حزم من اليهودية، تحدثت فيه عن نقده للمصادر اليهودية، ومنهجه فى مناقشة تلك الديانة، والطريقة التى اتبعها فى نقد التوراة، وإثبات الوضع والتحريف.

وفى الفصل الثالث ذكرت آراء ابن حزم فى النصرانية، فبينت القواعد والأسس التى يعتمد عليها وهو يؤرخ لها ويدرسها، وقد ركزت فى هذا الفصل على نقاط ثلاث:

١ - موقفه من عقيدة التثليث.

٢ - موقفه من عقيدة الصلب والفداء.

٣ - موقفه من الأناجيل وكتب النصارى الأخرى.

وقـد اخترت من بين العقائد الأخرى عقيدة الصابئة فخصصت لها الفصل الرابع، وذلـك لأن تلك الديانة تحتاج إلى شـيء من التوضيح لتضارب مـا قيل عنها، وقلة الفاهميـن لها.. وإننى بتلك الدراسـة التـى كتبتها عن الصابئة أرجـو أن أكون قد أسهمت بشيء فى تحديد معالمها، وبيان أطوارها وعقيدتها.

وقد كان الفصل الأخير من الدراسة خاصا بموقف ابن حزم من الفلاسفة فرأيت أن أختار موقف ابن حزم من السوفسطائية وموقفه من قضية قدم العالم وحدوثه.

وبعد..

فإن أكن قد وفقت فهذا فضل من الله، وإن أكن غير ذلك فحسـبى أننى ما ابتغيت إلاّ وجه الحق والصواب.

وسبحان المنزه عن الخطأ والتقصير..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

مصر الجديدة فى

جمادى الآخر سنة ١٤٠٣هـ

الموافق إبريل سنة ١٩٨٣م

دكتور

محمود على حماية